الفصل الأول

عصر ناصيف اليازجي

١ ـ الحركة السياسية

كانت مصر وسورية ولبنان فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهو ميلاد الشيخ ناصيف اليازجى ، مسرحاً للحوادث الجسام : فمن احتلال الفرنسيين لمصر فى سنة ١٧٩٨ إلى إخفاقهم تحت أسوار عكاء ، ومن حدب اللبنانيين على الفرنسيين ، إلى نكوصهم عن مساعدتهم بعد إذ أوغر الأميرال سدنى سميث الإنجليزى صدورهم على بونابرت.

وكان الظلم والاستبداد هو الشعار الذى يتحلى به كل والٍ تركى عهد إليه فى السيطرة على ولاية من الولايات ، وبقيت الحال على هذا المنوال حتى فتح الجيش المصرى بلاد الشام فقابله الأهلون بالترحاب والأفراح[1] .

وكان لبنان يتمتع بضرب من الحكم الذاتى فى تلك الفترة فشاء الأمير بشير الشهابى أن يقضى على تلك الصلة الواهية التى تربطه بالأتراك وأن ينادى

---

(١) سار الجيش المصرى وفتحت فلسطين من أقصاها إلى أقصاها بعد حصار قليل لمدينة عكاء ثم سارت الجيوش نحو الشمال ففتحت دمشق فحلب وعمت الأفراح فى بلاد الشام بالفتح المصرى حتى قال شاعر الشام فى وقته الشيخ أمين الجندى فى ذلك من قصيدة يسرد بعض أحوال الموظفين الأتراك وفظائع الجند العثمانى وما كانوا يعاملون به الناس من سوء الخلق :

وقد استباحوا المنكرات فلا تسل ... عما توقع منهم وتحصلا
وقضاتهم للسحت قد أكلوا فهل ... أبصرت حيًّا عن مضرتهم خلا
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم ... وطغوا وزادوا فى الضلال توغلا
ومشايخ الإسلام أصبح علمهم ... جهلا فلم تر قط منهم أجهلا
... من يخبر الأتراك أن جيوشهم ... كسرت وأن حصينهم ولى إلى ...

(« مصر والشام فى الغابر والحاضر » لأسعد طلس)

بلبنان بلداً حرًّا مستقلا ، وكاد يفلح فى مسعاه لولا تألب الدول الأوربية عليه فكان مصيره النفى إلى الآستانة فى سنة ١٨٤٠ .

وتمخّضت تلك الحوادث عن فرض نظام جديد على لبنان قوامه تقسيم الجبل بين قائم مقام مارونى وآخر درزى يستمد كلاهما سلطانه من الوالى التركى .

وما لبثت تركيا أن استفادت من هذا التقسيم المبنى على العنصرية الدينية ، فنفثت سمومها بين أبناء الوطن الواحد ، وألبت الأخ على أخيه ، فاندلعت ألسنة الثورة الأهلية غير مرة وكان أشدّها ضراماً ثورة سنة ١٨٦٠ فكثرت فيها الضحايا وعمّ الخراب والدّمار .

وهنا أيضاً تتداخل الدول الأوربية ، وتسنّ للبنان نظاماً جديداً من الحكم الذاتى يعرف بعهد المتصرفية ، ولكنه لا يفصل لبنان مع ذلك عن العجلة التركية . ومع ما فى هذا النظام الجديد من مساوئ تبعد اللبنانيين عن غايتهم الكبرى وأمنيّتهم المنشودة ، وهى الاستقلال التام ، فقد نعم اللبنانيون فى ظلاله مدة نصف قرن بالأمن والعدل والرخاء .

تلك صورة عابرة خاطفة للحركة السياسية فى عصر المترجم له ، وعلى الجملة كان عصر انحطاط وظلم تساق به العامة سوق الأنعام لا إرادة لهم ولا رأى ولا حرّية ينعمون بها والدولة العثمانية تحتقر المعارف وتبعد رعاياها عن كل ثقافة وتحضّر فتقدم الخاصة بالعلوم كان ضئيلا جداً[١] .

ولما أخذ الناس بأطراف المدنية الغربية وفتح باب المهاجرة كان أول ما اقتبسوه الحرية الشخصية[٢] .

٢ ـ الحركة الاجتماعية

نبّهت الحملة الفرنسية المصريين إلى عالم اجتماعى جديد بما نقله أعضاء الحملة معهم من عادات ومظاهر اجتماعية فى الملبس والمشرب والمأكل وفى غير

---

(١) « زبدة الصحائف فى سياحة المعارف » . مطبعة الأمريكان . بيروت ص ٣٦ .

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان ج ٤ ص ٧٦ .

ذلك من مجالى الحياة اليومية ومباهجها كانت كلها أموراً جديدة فى حياة المصريين لم تلبث أن تسرّبت إلى عاداتهم وتقاليدهم .

أما لبنان وسورية وفلسطين فإن إخفاق الحملة الفرنسية فيها ، جعل المدنية الغربية لا تطرق أبوابها يوم طرقت أبواب مصر ، فبقى القوم محصورين فى دوائرهم الاجتماعية ، يحيون الحياة التى ألفوها ، ويجرون على العادات التى توارثوها عن الآباء والأجداد ، وقوامها كرم عربى يتبض فى عروقهم ، ونخوة عربية تذهب بهم إلى أبعد الغايات ، وجدّ ونشاط فى موارد الرزق يستنبتون بهما عتىّ الصخر ويديرون بهما صناعاتهم الخفيفة ، هذا إلى قيام المرأة بنصيبها فى تلك الحياة فهى ربّة البيت ، وأم البنين ، والمشاركة للرجل فى جهاده العنيف .

ولم يطرأ على هذه الحال تبديل يذكر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى أن بدت طلائع الزحف الاجتماعى تتوغل فى البلاد ، ومرجعها أولا إلى المعاهد الكبرى التى تنافس على إنشائها المرسلون الأجانب ، ففتحوا فى الشرق منافذ على حضارة الغرب وأحواله الاجتماعية فتنبهت الأفكار ، وتطلعت العيون ، وصبت النفوس إلى الاغتراف من مناهل ذلك الجديد .

ويشاء القدر أن يقترن تاريخ تلك الحقبة بتاريخ إنشاء الصحف ، وتأليف الجمعيات الأدبية والعلمية ، وقيام فن التمثيل ، وإقبال الأدباء على ترجمة الكتب الأجنبية ، واطلاع الناس على ما فى الغرب من أسباب الحضارة ، فأثّر هذا كله فى النفوس الشرقية ، وجلا للبلاد حالا اجتماعية جديدة إن لم تنتشر كل الانتشار حتى وفاة المترجم له قبيل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فقد جدّ جدّها بعد ذلك واعتنقها اللاتينيون وساروا فيها شوطاً بعيداً .

هذا ونزوح اللبنانيين وغيرهم من أنحاء سورية إلى بيروت على أثر حوادث ١٨٦٠ أحدث حركة اجتماعية فيها وزاد قدوم الأجانب إليها للتجارة والتبشير فى ظل الامتيازات الأجنبية[١] .

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان ج ٤ ص ١٤ .

٣ ـ الحركة الثقافية

كان لبنان فى مطلع القرن التاسع عشر ، يغطّ فى سبات عميق من الجهل لانعدام وسائل التعليم فيه ، فلم يكن هناك مدارس ، ولا كتب ، ولا جرائد[١] ، وكانت بقاعه وبقاع ما جاوره من البلاد العربية تحت جنح حالك من ظلام الجهل إلا ما كان منها قرب الأديرة[٢] . أو فى زوايا المساجد . ولم تكن المدارس فى بيروت أرقى مما كانت عليه قرب الأديرة بل أدنى ؛ فقد كانت كتاتيب صغيرة تعلم فيها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ويتولى ذلك بعض المعلّمين البسطاء ؛ وكان لكل طائفة مدرسة تقوم على تلقين طلبتها شيئاً من العلوم الدينية ، ومبادىء القراءة والحساب .

ولما قدم المرسلون سعوا إلى فتح مدارس أرقى شأناً من الكتاتيب ولكنها لم تبلغ شأواً بعيداً إلا بعد حوادث سنة ١٨٦٠[٣] .

أما الكتب فقد كانت نادرة ، وأكثرها من المخطوطات الغالية الثمن فلا يملكها إلا القليل من الأثرياء ؛ وكذلك كانت حال الكتب العربية المطبوعة فى أوربا فلا يعرفها إلا أفراد من العلماء ، ولم يكن لمطبوعات الشرق وجود إلا فى الآستانة ، وهى تركية اللغة فى الأعم الغالب .

ولم يكن فى لبنان إلا مطبعة دير مار يوحنا الصابغ فى الشوير تعنى بالكتب الدينية[٤] .

وكان فن الكتابة ، فى بلاد هذه حالها ، على جانب كبير من الانحطاط والركاكة ؛ وكان إنشاء الكتّاب فى مطلع القرن التاسع عشر سقيماً جداً لا يجرى على قواعد اللغة وعلومها ، ويتضح لنا ذلك جلياً من مطالعة بعض

---

(١) « يوبيل المطبعة الأمريكية » من خطبة للبطريرك غريغوريوس الرابع البطريرك الأنطاكى الأرثوذكسى .

(٢) « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » ، المطبعة الكاثوليكية . بيروت ج ١ ص ٢ و « تاريخ آداب اللغة العربية » زيدان ج ٢ ص ٤٦ .

(٣) « تاريخ بيروت » ، المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٢٧ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٤) المشرق ، السنة الثالثة ص ٣٥٩ — ٣٦٢ .

الوثائق التى كانت تكتب فى دواوين الحكام ، وفى مطالعة الكتب التى أرّخت تلك الحقبة من الزمن ؛ فالمطلع على « الأصول العربية » [١] وعلى « مذكرات تاريخية »[٢] يرى أن اللغة فى هذا العصر قد انتقلت إلى جوّ العامية والرطانة الأعجمية ، فلا نكاد نتبين لغة معربة ولا عبارة صحيحة .

وقد نهضت اللغة بمن قام فى لبنان وسورية ومصر من رجال العلم يحاولون رفع مستوى الكتابة فساروا بها على قواعد مضبوطة ، كبطرس كرامة ونقولا الترك والنقاش والمراش وأحمد فارس الشدياق وناصيف اليازجى وأضرابهم .

على أن الرسائل الأدبية التى عرفت فى ذلك العصر كانت متأثرة بطابع القرن الثامن عشر وظلّ السجع مدة طويلة أسلوب الكتّاب ، ثم أخذ الإنشاء يتحوّل عن الأسلوب القديم المقيّد إلى الأسلوب الجديد الحرّ ، وقد أعان على انتشاره العلم والتجارة والاقتراب من العالم الغربى ثم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب .

ولم يبلغ القرن التاسع عشر عصاراه حتى كان الترسّل الأدبى قد أخذ يخلع عنه أطمار القديم ولكن ذلك لم يتمّ فجأة كما يتبين لنا من مراجعة الصحف [٣] .

---

(١) نشرها أسد رستم .

(٢) نشرها الأب قسطنطين الباشا .

(٣) « الأساليب النثرية » لأنيس المقدسى . طبعة بيروت ص ٣٦٦ .